



مؤقتة الفنون واللغة

Art and language conference

كلية الفنون الجميلة - كلية الآداب - كلية اللغات

الأنحاء العلمية
المجلد الرابع

ميز الله تعالى البشر عز سائر المخلوقات بقدرتهم الفطرية على الكلام، ليكون الوسيلة الأسمى للتعبير عن المشاعر والأفكار والأحاسيس لإشتماله على أدوات تعكس كل النواحي المتعلقة بهذه الأفكار والأحاسيس. ويلى الكلام المنطوق في المقدرة على الإيصال والتواصل الكتابة بشتى أنواعها وطرائقها^(١)، فباستعمالها صان الإنسان يدعو جيرانه إلى مشاركته أفكاره ومشاعره الخاصة، ويسير بهم نحو التلاحم في المجتمع^(٢)، والكتابة تطلع على مافي الضمائر وتتأدى بها الأغراض إلى البلاد البعيدة فتقضى الحاجات، ولذا قامت الكتابة بدور كبير في السفارات بين الدول، فلا تكاد تخلو سفارة من كتاب يتضمن كل الأفكار والمعاني التي يريد المرسل إيصالها إلى المرسل إليه. وكانت دولة المماليك في مصر بشقيها البحري والجركسي قد حرصت على إقامة علاقات سياسية ودبلوماسية مع الدول المعاصرة لها، وزادت هذه العلاقات عمقاً وتأكيذاً بسبب إيمان السلاطين المماليك بأثر علاقات السلام وروابط المودة في تحقيق فوائد جنية للدول المتعاهدة، في حين لا تجلب الحروب في ميادين القتال سوي الهزائم والخسائر، مع تطلعهم إلي أن يحقق السلام الكثير من قواعد التعاون الاقتصادي، كما يفتح أبواباً لكثير من مجالات العمل البناء بين الدول المتعاهدة، ونتيجة لذلك يسجل التاريخ حقبة نشطة من الاتصالات الدولية المملوكية في العصور الوسطى^(٣) مع الدول الإسلامية وغير الإسلامية، فقد شهد البلاط المملوكي^(٤) العديد من السفارات التي تنوعت تبعاً للظروف السياسية الخارجية والاقتصادية، ما بين تجارية تستهدف عقد اتفاقية أو اقرار ضرائب أو تنشُد مزيداً من الامتيازات، وعسكرية تطلب مساعدة أو تأييداً، وزیما تحمل تهديداً أو تخفي رغبة في التجسس هذا فضلاً عن السفارات السلمية التي ترغب في عقد مصاهرة، أو تطلب كتاباً أو طبيباً أو تعرب عن الولاء والطاعة، أو غير ذلك من الأسباب^(٥).

(١) محمد علي الخيري، نظام كتابة اللغات، ندوة النقل الكتابي للأسماء بين اللغات، مركز الدراسات والبحوث، قسم الندوات واللقاءات العلمية.

جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ٢٢-٢٤/١٠/١٤٢٧هـ الموافق ١٣-١٥/١١/٢٠٠٦م، ص ١.

(٢) أرنسٹ دوبلهوفر، رموز ومعجزات دراسات في الطرق والمناهج التي استخدمت لقراءة انكنايات واللغات القديمة، ترجمة ونقدم عسناد حاتم، دار

علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، ٢٠٠٧م، ص ١٩.

(٣) حياة ناصر الحجي، بعض الأبعاد الاقتصادية لسلطنة المماليك، جليليات الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت،

الرسالة ١٨٩، الخولية ٣٨، ٢٠٠٢-٢٠٠٣م، ص ص ٥١-٥٢.

(٤) محمد محمود النشار، علاقة مملكتي قشتالة وأراجون بسلطنة المماليك ٦٥٨-١٢٦٠/٥٧٤١-١٣٤١م، عين للدراسات والبحوث الانسانية

والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ١٠٥.

(٥) مني إبراهيم عبد الرحمن، السفارات الأجنبية في مصر علي عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة

القاهرة، ١٩٧٥م، ص أ.

وقد تعارف الناس منذ القدم أن تشتمل السفارات بين الدول على هدايا^(١)، إذ كانت الهدايا تعتبر لغة من بين اللغات التي لها أصولها ومعانيها ومغزاها بين السلاطين والملوك، فهي لسان مهديها ولفظة في التعبير عما في نفسه تجاه المرسل إليه، فقد قال بعض الحكماء: "ثلاث تدل على ثلاث الهدية على المهدى والكتاب على الكاتب والرسول على المرسل"، وقد سألوا عن كيفية معرفة عقل الرجال وهم غائبون فقالوا: "إما برسوله أو كتابه أو هديته"^(٢)، لأن هديته عنوان همته"^(٣)، واتفق الجميع على أن الهدايا تعد من أجمل الأشياء التي تُعبّر عن المشاعر والود وتقوى أواصر المحبة، وتزيد الترابط وتدعم العلاقات بين الناس، حتى وإن كانت تلك العلاقات قائمة على المصلحة والمنفعة، ونتيجة لتوسع الممالك في علاقاتهم الخارجية مع الدول الأخرى وتبادل السفارات أصبحت التقديم أو الهدايا المتبادلة أمراً ضرورياً بينهم كدليل على حسن النوايا، وكسب العلاقات الطيبة أو المبالغة في إظهار الود والاحترام المتبادل^(٤).

غير أن العصر المملوكي شهد ثلاث سفارات حملت هدايا مادية كانت بديلاً عن الكتب المعتادة في السفارات بين الدول، إذ حملت دلالات فكرية و معاني أخرى رمزية غير المعتادة أو المعروفة، وهذا الأسلوب يُعد شكل من أشكال الكتابة بطريقة الأشياء^(٥)، أو بتعبير آخر كانت هذه الهدايا عبارة عن كتابة عن طريق الأشياء المادية،

ويمكن إجمال هذه السفارات وما كانت تحمله من الهدايا والدلالات الفكرية لها كما يلي: أرسل ملك قشتالة من بلاد الأندلس إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون هدية فيها "سيف وثوب بندقى وطارقة مستطيلة تشبه النعش"، كأنه يقول له أقتلك بهذا السيف وأكفئك في هذا الثوب وأحمك على هذا النعش، ولكن الناصر محمد فهم معنى هذه الهدية وما تحمله من خبث وسوء نية فأرسل له هو الآخر

(١) عندما جاء الاسلام دعم هذه القيمة ورغب فيها يؤكد ذلك حديث الرسول الكريم ﷺ "تهادوا تحابوا". محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨م: حديث رقم ٣٠٠٤، ص ٥٧٧.

(٢) البيهقي (إبراهيم بن محمد)، المحاسن والمساوي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، سلسلة ذخائر العرب، العدد ٦١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩١م، ص ١٤٨؛ سليم أفندي سركيس، مجلة سركيس، السنة السادسة، العدد ٢، القاهرة، أكتوبر ١٩١٠م، ص ٥٢.

(٣) محاسن محمد الوقاد، الهدايا والتحف زمن سلاطين المماليك البحرية (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م)، حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس، المجلد ٢٨، العدد ٢، ٢٠٠٠م، ص ٢٢٣.

(٤) مني بدر، أثر الحضارة، ج ١، ص ١٧٩. درج الملوك والسلاطين أن تختار الهدايا التي تحملها رسلهم في سفاراتهم من اعجب ما عندهم وأندرهم، وكانت الهدايا الكثيرة ذات القيمة الكبيرة تدل على مكانة وعظمة المرسل إليه، وكان السلاطين يتفننون في انتقائها واختيارها ويغالون في جعلها مما يرضى ويعجب، وحتى إذا اختاروا هدايا مألوفة فبراعوا أن يأخذوا منها أجودها وأحسنها وأغلاها. مني إبراهيم، السفارات الأجنبية، ص ١٩٣؛ محاسن محمد الوقاد، الهدايا والتحف، ص ١٩٧.

(٥) تعد الكتابة عن طريق الأشياء هي الخطوة الأولى والأكثر أهمية والسابقة للكتابة. لمزيد من التفاصيل راجع: أرنست دوبلهوفر، رموز ومعجزات، ص ٢٢-٢٧.

رداً عليه بهدية عبارة عن "حبل أسود وحجر"، وهو يعنى بذلك أنه كلب يرمى بهذا الحجر أو يربط فى هذا الحبل^(١).

وفى أوائل العصر المملوكى الجركسى اثناء فترة حكم السلطان الظاهر البرقوق ورد البريد فى المحرم عام ٧٩٦هـ/١٣٩٤م "...بحضور رسل تيمورلنك بهدية إلى أول حدود المملكة، فكتب بقتلهم، فلما كان سلخه قدمت رسل النواب بهدية تيمورلنك وهى: تسعة ممالك وتسع جوارى وغير ذلك من الفرو والصوف والمخمل، فعرضوا الممالك فإذا فيهم مملوك واحد والثمانية: واحد ولد وزير بغداد، والثانى ولد قاضيهما، والثالث ولد محتسبها، والرابع ابن أميرها، والخامس ابن تاجر فيها، والسادس ابن واليهما، والسابع ابن كاتبها، والأخير ابن شيخ كبير فيها، فلما تحقق السلطان من ذلك أطلقهم إلى حال سبيلهم وأحسن إليهم..."^(٢).

ثم أنفذ تيمورلنك إلى السلطان الظاهر برقوق فى ربيع الأول سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٤م هدية أخرى عبارة عن سيف وتركاش^(٣)، يعنى بذلك تهديد السلطان برقوق وإظهار قوة التتار الحربية واستعدادهم لمحاربة الممالك^(٤)، غير أن السلطان الظاهر برقوق أدرك ما تعنيه مثل هذه الهدية فكتب إلى تيمورلنك قائلاً: "...وأما إرسالك السيف والتركاش^(٥) لنا فقد تعجبنا منه إلى الغاية، وأنكرناه إلى النهاية... فنحن ما نخاف سيفك وتركاشك بعناية الله العظيم الأعلى..."^(٦).

وأوفد عثمان قرايلوك زعيم دولة الشاه البيضاء عام ٨٣٦هـ/١٤٣٢م إلى السلطان برسباى هدية^(٧) من جملتها "...قرص مرآة مكفّة بذهب، ومن جملتها خروف بليتين، وخلعة للسلطان مخمل أحمر مرقومة

(١) العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٩٢. ؛ القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج ٨، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩١٥م، ص ٣٥، ج ٩، ١٩١٦م، ص ٢٥٠. ؛ منى إبراهيم عبد الرحمن، السفارات الأجنبية، ص ٢٠٢.

(٢) المقرئ (تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج ٥، ص ٣٤٥. ؛ الصيرفي (الخطيب الجوهري علي بن داود ت ٨٧٧هـ/١٤٧٢م)، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ١٩٧٠م، ج ١، ص ٣٧٣. ؛ ابن حجر، إنباء الغمر بأنباء العمر، ج ١، ص ٤٧٣، ٤٧٤.

(٣) التركاش كلمة فارسية معناها الكنانة أو الجعبة التي توضع فيها النشاب. محاسن محمد الوقاد، الهدايا والتحف زمن سلاطين الممالك البحرية (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م)، حويلات كلية الآداب جامعة عين شمس، المجلد ٢٨، العدد ٢، ٢٠٠٠م، ص ٢٠٠، هامش ٢.

(٤) منى إبراهيم عبد الرحمن، السفارات الأجنبية، ص ٢٠٣.

(٥) كانت أدوات القتال كالسيف والتركاش من الهدايا الشائعة بين الملوك في العصور الوسطى، فعلى سبيل المثال وصلت رسل بيبرس إلى أبا ردا علي سفارته في عام (٦٧٠هـ/١٢٧١م) كانت بصحبته هدية عبارة عن "...جوشن وخوذة وسيف وقوس وتركاش..."، ولكنها شأنها شأن أي نوع آخر من الهدايا كانت تحمل معاني الود والصداقة، على العكس من هدية تيمورلنك إلى الظاهر برقوق التي حملت معاني مختلفة من تهديد ووعيد نظراً للظروف التي أحاطت بها. بيبرس المنصوري (ركن الدين بن عبد الله ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، الجزء التاسع، تحقيق زبيدة عطا، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ١٢٤.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٧، ص ٣٠٩.

(٧) ابن إياس (محمد بن أحمد الحنفي المصري ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، ١٣١١هـ/١٨٩٤م، ص ١٩. ؛ منى إبراهيم عبد الرحمن، السفارات الأجنبية، ص ٢٠٤. ؛ إبراهيم علي طرخان، مصر في عصر دولة الممالك الجراكسة، مكتبة النهضة المصرية، سلسلة الألف كتاب، العدد ٢٧٩، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ١٢٢.

بالذهب، وبعض أثواب مخمل، وصقور برسم الصيد، فغضب السلطان برسباى من الهدية وفهم ما تعنيه من معانى، إذ يُرمز بالخروف إلى السلطان، وأنه هو وأمرائه عندهم مثل النعاج، والمرآة تعنى أن السلطان وأمرائه كالنساء، فى حين تشير الخلعة إلى أن برسباى تابع لعثمان، فأمر السلطان بإحضار أحد الهزليين وألبسه الخلعة فرقص بها، ثم أمر السلطان بإحراقها وذبح الخروف فى حضرة الرسل، وأمر بإلقاء الرسل فى البحيرة، وقص أذنان خيولهم، وأمرهم بأن يسافروا وقال لهم: قولوا لأستاذكم يلاقينى على الفرات...^(١).

ويتبين لنا مما سبق أن الهدايا التى صحبت السفارات السابقة كانت بمثابة رسائل كتابية عن طريق هدايا مادية تُعبّر بالوحى والإشارة عن أفكار ومعانى فى نفس مُرسلها، وهو ما يعبر عنه أهل المعانى والبيان بالإستعارة بالكناية^(٢)، فالهدايا القليلة تشير إلى معان كثيرة بالإيحاء إليها، وبدلاً من المعتاد أن تكون الهدايا رمزاً للمحبة والامتنان والصدقة والصلح، أصبحت هنا تحمل معانى الاستهزاء والتهديد والتهكم، وبدلاً عن تبادل ألفاظ السباب والشتائم^(٣)، ولكن بأسلوب غير مباشر عن طريق الكناية بالشئ فيعرض به ولا يُصرّح.

والجدير بالذكر أن الكتابة بالأشياء المادية - وهى هنا الهدايا - أو التعبير عن الأفكار بالماديات هو أسلوب قديم، إذ كان الإنسان البدائى إذا أراد أن يبعث برسالة فكرية عبّر عنها بأشياء مادية من واقع البيئة التى يعيش فيها، باعتبار أن هذا الشئ المادى هو رمز يعبر عن الأفكار التى أراد أن يوصلها للآخرين^(٤).

^(١) عندما شعر السلطان سليم الأول العثماني بخطر الدولة الصفوية الناشئة على دولته بدأ بالإعداد لمعركة فاصلة وقوية ضدها، وفكر فى أن يستحث الشاه إسماعيل على الحرب، فكتب إليه رسالة باللغة التركية فى ٢٦ من جمادى الأولى عام ١٨/هـ ٩٢٠ من يونيو عام ١٥١٤م يؤنبه ويعاتبه، وأرسل برفقة هذه الرسالة هدايا تخص الدراويش تتمثل فى "عصا وخرقة وكشكولا ومسبحة"، وكان يقصد من ذلك الاستهزاء بالشاه إسماعيل، وأن يقول له أن الحرب من شيم الشجعان، وأن عليه أن يركن إلى هذه الأشياء كما كان يفعل أجداده رؤساء فرق الدراويش، وقد أجاب إسماعيل على رسالة سليم برسالة معتدلة ترمى إلى طلب المهادنة بين الدولتين وتجديد علاقات الصداقة بينهما، وإن كان ذليلاً بأنه فى حالة إصرار سليم على الحرب فما من وسيلة أخرى، وأرفق بهذه الرسالة "علبة ذهبية محشوة بالدخان (الأنيون)"، كناية إلى أن السلطان واقع تحت تأثير المخدر ويخجل بالقضاء على الشاه، وكان رد السلطان سليم أن تقدم للقتال سعياً إلى المواجهة العسكرية مع الشاه إسماعيل، ولكن الأخير كان يتهرب من ذلك ويحاول قطع الطريق وتخريبه ليحول دون وصول القوات العثمانية إلى داخل إيران حتى يأتى الشتاء فيهلك الجنود العثمانيون من البرد والجوع، وعندما علم السلطان سليم بنوايا الشاه إسماعيل أرسل له أواخر شهر جمادى الثانى من عام ١٥١٤/هـ ٩٢٠م وفداً برسالة يصفه فيها بالتداعى والدعة والخوف من المواجهة، وبعث مع الرسالة هدية فيها مجموعة من "ملابس النساء وأدوات الزينة" بهدف إشعاره بأن تصرفاته ليست من شيم الرجال، ويُعلمه أن فعله هذا من أفعال النساء. بديع جمعة وأحمد الخولى، تاريخ الصفويين وحضارتهم، دار الرائد العربى، القاهرة، ١٩٧٦م، ص ٨١، ٨٢؛ توفيق حسن فوزي، رؤية الوثائق والمصادر التركية للصراع العثماني الصفوي ومقدماته فى عهدي بايزيد الثانى وسليم الأول، رسالة ماجستير، غير منشورة، قسم اللغة التركية، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٨٦م، ص ١١١-١١٥؛ عباس إسماعيل صباغ، تاريخ العلاقات العثمانية-الإيرانية: الحرب والسلام بين العثمانيين والصفويين، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٩م، ص ١٢٩، ١٣٠.

^(٢) الفلقشندى، صبح الأعشى، ج ٩، ص ٢٤٩.

^(٣) منى إبراهيم عبد الرحمن، السفارات الأجنبية، ص ٢٠٢؛ محاسن محمد الوقاد، الهدايا والتحف، ص ٢٢٢.

^(٤) مثال ذلك أن كومة من الحجارة تعنى تخليد ذكرى ميت. شعبان عبد العزيز خليفة، الكتابة العربية، دار الثقافة العلمية، القاهرة، د.ت.، ص ٩.

؛ خلف طايح، الحروف الأولى دراسة فى تاريخ الكتابة، دار ميريت، القاهرة، د.ت.، ص ١٤.

ويرجع الفضل إلى المؤرخ هيردوت الذى قدم للعالم الإخبارية الشهيرة عن أول رسالة بالاشياء، فقد روى أن الملك الفارسي دارا (داريوس) تلقى رسالة من رؤساء قبائل "سكايث" Skyth أثناء حروبه ضدهم، مؤلفة من عصفور وفأر وضفدع وخمسة سهام، فسأل الفرس الرسول عن معنى الهدايا، لكنه رد عليهم بأنه أمر فقط بتسليم الهدايا والعودة بأقصى سرعة، ثم أضاف إذا كان الفرس على شئ من الحكمة أدركوا معناها بأنفسهم، فلما سمعوا بذلك عقدوا مجلساً ليتباحثوا فى هذا الأمر، فأبدى الملك دارا رأيه قائلاً: أن السكوثيين يريدون تسليم بلادهم له براً وبحراً، لأن الفأر يسكن اليابسة ويأكل الأطعمة نفسها التى يتغذى بها الإنسان، فى حين أن الضفدعة تقضى عمرها فى الماء، أما العصفور فيشبه الحصان إلى حد كبير، وتدل السهام على تسليم كل قواتهم، غير أن احد القادة الفرس قام يعارض دارا فى رأيه هذا قائلاً: السكوثيون يقصدون بذلك أن يقولوا: "أيها الفرس إن لم تتحولوا إلى طيور تحلق فى جو السماء، أو تصيروا فيراناً تحفر جحورها تحت الأرض، أو ضفادع تختفى تحت الماء، فلن تفلتوا من هذه البلاد، وستلقون حتفكم بهذه السهام، وقد كان هذا القائد على حق وهو ما اضطر الملك إلى الاعتراف به فيما بعد^(١).

وعندما وقع احد رجال قبيلة بنى عنبر العربية فى أسر بنى حنظلة، وفهم عنهم أنهم يقصدون الغارة على قومه بنى العنبر، تحايل عليهم حتى بعث إلى قومه بصرة شوك وصرة رمل وحنظلة، يريد جاءكم بنو حنظلة فى عدد كثير بكثرة الرمل والشوك^(٢).

وما تزال فى وقتنا الحالى - إذ ليس من الضرورى أن تتزامن البدائية لدى كل الشعوب - قبائل بدائية تعبر بنفس الطريقة عن رسائلها الفكرية ومن الأمثلة على ذلك تلك الرسالة التى بعث بها أحد أسرى قبيلة إفريقية هى "يوريا" إلى زوجته من الأسر وكانت عبارة عن صرة ثياب بالية وضع فى داخلها حجراً وقطعة فحم وفلفل وبعض حبات من الذرة، وقد فهمت الزوجة من هذه الرسالة أن جسم زوجها قد نحل وتصلب كالجمر وأن مصيره أسود كالفحم وأن عقله قد اضطرب واختل كالفلل وأن عينيه قد اصفرتا مثل حبات الذرة وأن ثيابه قد تهرأت كالخرقة البالية التى تضم هذه الأشياء جميعاً^(٣).

وإذا كان الإنسان فى تلك المرحلة البدائية من حياته - سواء حدث ذلك قديماً أو حديثاً - قد استخدم الأشياء المادية نفسها للتعبير عن رسائله الفكرية، إلا أنه لم يلبث أن انتقل إلى مرحلة الكتابة

(١) أ.ج. اينانز، هيردوت، ترجمة أمين سلامة، مراجعة كمال الملاخ، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ص ١٧٩؛ أرنست دوبلهوفر، رموز ومعجزات، ص ٢٦، ٢٧؛ خلف طابع، الحروف الأولى، ص ١٦.

(٢) العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل ت ٣٩٥هـ/٩٦٩م)، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تصحيح محمد أمين الخانجي، القاهرة، ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م، ص ٢٩٠؛ لمزيد من التفاصيل راجع: الفلقشندى، صبح الأعشى، ج ٩، ص ٢٤٩. وقدّم ثلاثة من الجوس للسيد المسيح عند ولادته ثلاث هدايا (ذهباً ولَبَاناً ومُرّاً)، فالذهب رمز الملكية، واللَبَان (البخور) هدية الكاهن، أما المرّ فهو من الحنوط التى تقدم لشخص عند موته، إشارة إلى أن المسيح سيتألم من أجل خلاص العالم. انجيل متى ٢: ١٢.

(٣) أرنست دوبلهوفر، رموز ومعجزات، ص ٢٤؛ شعبان عبد العزيز خليفة، الكتابة العربية، ص ٩.

الفعلية^(١)، وأولى مراحلها الكتابة التصويرية^(٢) أى تصوير أو رسم تلك الأشياء على وسيط خارجي عوضاً عن الشئ نفسه ومن ثم إحداث نفس الأثر وتبليغ نفس الرسالة بطريقة مختصرة وأكثر سهولة وأقل عناء^(٣)، أى أنه لجأ إلى محاكاة الطبيعة تسجيلاً على وسيط، وإن لم تأت المحاكاة أحياناً دقيقة تماماً إلا أنها كانت معبرة^(٤)، وبذلك يكون الإنسان قد استخدم الصور للتعبير عن المعانى والأفكار، واستعان في ذلك إما بالصور كاملة أو جزءاً منها للتعبير عن الأشياء. ونظراً لما تتمتع به الكتابة التصويرية من مميزات تتمثل في القدرة على التعبير ونقل الأفكار أكثر مما تفعل الكلمات، وفي نفس

^(١) مرت الكتابة بأربع مراحل تمثل الطرق المختلفة المعروفة حالياً لتسجيل الكلام المنطوق وهى: التعبير بالصورة، والتعبير بعلامات مقطعية متعددة، والتعبير بمقطع واحد، ثم التعبير بالأبجدية، وإذا احتوت الكتابة على عدد محدد من العلامات حوالى ٣٠ علامة فإن الكتابة تكون أبجدية، وإذا احتوت ما بين ٣٠-١٠٠ علامة تكون مقطعية، وإذا وصلت العلامات إلى المئات تكون متعددة المقاطع، وإذا وصلت العلامات إلى الآلاف تصبح تصويرية. لمزيد من التفاصيل عن هذه المراحل راجع: شعبان خليفة، الكتابة العربية، ص ١٠-١٢؛ محمد على الخيري، نظام كتابة اللغات، ص ٦-٨؛ خلف طايغ، الحروف الأولى، ص ٤-٧؛ مايكل دافوست، الكتابة والمجتمع عند هنود مايا ما بين القرنين الثاني والعاشر، تاريخ الكتابة من التعبير التصويرى إلى الوسائط الإعلامية المتعددة، إشراف آن مارى كريستان، سلسلة دراسات فى الخطوط، العدد ٣، مركز الخطوط، مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٥م، ص ١٧١.

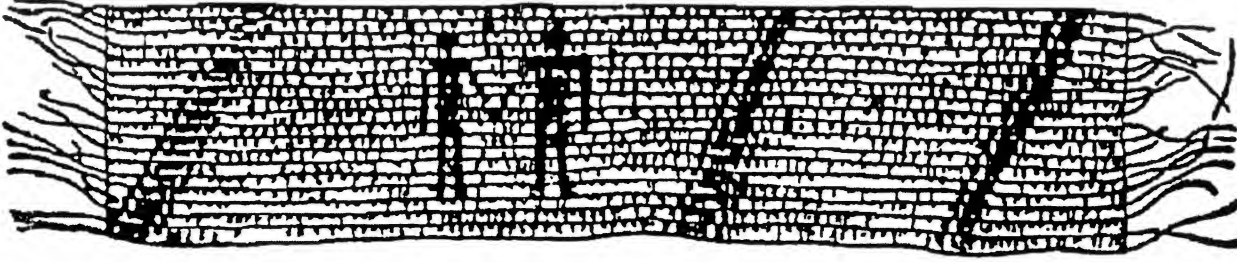
^(٢) يمكن القول أن معظم أنظمة الكتابة ترجع أصولها إلى النظام الصوري، فالصور والرموز والعلامات كانت تمثل البدايات الأولى البسيطة للكتابات القديمة، وكل الشعوب والثقافات بدأت أولى مراحل كتابتها بالرسم، حيث سجلت الأحداث الهامة والذكريات والرسائل بالرسم أو التصوير أو حفر خربشات. وهذا النوع من الرسوم والتصاویر يصنف من ناحية تاريخ الكتابة وتطورها بمصطلح الكتابة التصويرية Picture Writing، ويقصد بها نظام تكون فيه وحدات الكتابة عبارة عن صور رمزية، تمثل أشياء أو حيوانات أو أفعال، وتنقسم إلى قسمين، الأول الكتابة التصويرية بمفهومها الضيق Pictogram وفيها تقوم الصورة بالرمز إلى الشئ نفسه كأن يعبر عن الشمس برسم دائرة يخرج منها أشعة، والثاني الكتابة التصويرية التحليلية أو الفكرية Ideogram، وفيها تتحول الصورة إلى رمز لفكرة متفق عليها كأن تعني الدائرة ذات الأشعة المنبثقة لا شمساً بل شيئاً آخر بمعنى حار أو ساخن أو دافئ. أرنست دوبلهوفر، رموز ومعجزات، ص ٢٨؛ خلف طايغ، الحروف الأولى، ص ٣٧؛ أولاف برجرين، قصة الكتابة رموز وأبجديات مكتبة الإسكندرية، ترجمة أمّن منصور، مراجعة لؤى محمود سعيد، سلسلة دراسات فى الخطوط، مركز الخطوط، مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٥م، ص ١٦؛ إسماعيل سراج الدين، المقدمة، تاريخ الكتابة من التعبير التصويرى إلى الوسائط الإعلامية المتعددة، ص II؛ محمد صالح الضالع، اللسانيات والكتابات، أبحاث المنتدى الدولى للنقوش والخطوط والكتابات فى العالم عبر العصور، ٢٤-٢٧ أبريل ٢٠٠٣م، مركز الخطوط، مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٧م، ص ٨٧.

<http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%83%D8%AA%D8%A7%D8%A8%D8%A9>

^(٣) مارست معظم الشعوب هذا النوع من الكتابة، والقبائل البدائية المعاصرة يمكن ان تقدم لنا أمثلة مشابهة للكتابة التصويرية التى استخدمت عند الشعوب القديمة، ومن الأمثلة على ذلك ما فعلته قبيلة ليني-ليناي الهندية عندما قدمت إلى وليام بين مؤسس بنسلفانيا هدية عبارة عن حزام أبيض اللون يظهر فى وسطه شخصان أسودا اللون، يمثل الأيسر هندياً يقدم يده لأوروبى يعتمر قبعة، وينحصر المغزى التاريخى لهذا الحزام - المحفوظ حالياً ضمن مقتنيات الجمعية التاريخية البنسلفانية - فى ترسيخ الاتحاد الودى بين وليام والهنود الذى تم عام ١٦٨٢م (شكل ١). كما أرسلت سبع من القبائل الهندية الشمالية إلى الكونغرس الأمريكى رسالة للحصول على حق الصيد فى بعض البحيرات، تتمثل هذه الرسالة فى عريضة عليها رسم لسبع حيوانات ترمز إلى القبائل السبعة يتقدمها البجع إلى اليمين، وتوجد خطوط تربط قلوب الحيوانات ويعونها وتعنى أن القبيلة الرائدة تعبر عن الرأى المجمع عليه بين القبائل وتقوم بتقديم الطلب الجماعى، بينما يوجد خط ينطلق من عين البجع ويؤدى إلى بحيرات أربع صغيرة مرسومة إلى اليسار من أسفل بعد مروره فوق الحيوانات، وهو يشير إلى الرغبة المشتركة لدى القبائل بالتمتع بحق صيد الأسماك فى هذه البحيرات فهى المعنية بالطلب، ومن العين الأخرى للبجع ينطلق خط إلى الأمام وهو يعنى أنه يرفع نظره بثقة إلى الكونغرس بانتظار رده الإيجابى (شكل ٢). أرنست دوبلهوفر، رموز ومعجزات، ص ٢٥، ٣٠. ولمزيد من الأمثلة راجع: خلف طايغ، الحروف الأولى، ص ٢٨-٣٢.

^(٤) شعبان عبد العزيز خليفة، الكتابة العربية، ص ٩، ١٠.

الوقت قليلة التكلفة، اكتسبت طابع الاستمرارية فحرصت عليها المجتمعات الإنسانية قديماً وحديثاً لما لها من أهمية، سواء حدث ذلك قبل معرفة نظم الكتابة أو بعد انتشارها^(١).



شكل (١): الحزام الذي قدمته إحدى القبائل الهندية إلى ويليام بين مؤسس بنسلفانيا. نقلا عن: أرنست دوبلهوفر، رموز ومعجزات.



شكل (٢): الطلب الذي أرسلته القبائل الهندية السبعة إلى الكونجرس الأمريكي. نقلا عن: أرنست دوبلهوفر، رموز ومعجزات.

وبناء على ما سبق ذكره بالإضافة إلى ما لا يخفى على الجميع من انتشار الكتابة واستقرارها خلال الفترة التاريخية المتعلقة بالدراسة، يثور تساؤل هام ويطرح نفسه بقوة يتعلق بالسفارات الثلاث التي وفدت إلى بلاط المماليك في مصر ألا وهو لماذا لم يلجأ مرسلو هذه الهدايا من الحكام والملوك إلى التعبير عن أفكارهم التي أرادوا إيصالها إلى سلاطين المماليك في مصر كتابة؟ أو تصويراً؟. ولماذا استعانوا في التعبير عن هذه الأفكار بأسلوب بدائي يقع ضمن باب الرموز والإشارات التي لا تعلق لها بالخط أو الكتابة؟، وهو أسلوب يحتاج إلى قوة ذكاء وإحتدام قريحة من الذي يقع منه الرمز، وإلى قوة

^(١) يلاحظ أن الكتابة التصويرية لم تنقرض في تاريخ الإنسان، حيث أن الصور المختصرة والرسوم المعينة للذاكرة وكل التعابير التصويرية إنما هي دعامة لا غنى عنها للتعبير اللفظي، فالصور والرسوم تحكي قصة بأفضل مما يمكن أن تحكيها الكلمات وحدها، لذا بقيت موجودة حتى الآن على الخرائط والعلامات التحذيرية، وأسهم الاتجاهات وإشارات المرور والإعلانات والشعارات ومعظم العلامات الإرشادية التي تنتشر في الطرقات والمطارات والسكك الحديدية والأماكن العامة... الخ، كما تعتمد عليها الأجهزة الحديثة كالحسابات الآلية والهواتف المحمولة جنباً إلى جنب مع الكتاب. ————— ف ط ————— ايع، الخ ————— روف الأولى، ص ٢١، ٢٧؛

حدس من الذى يحاول إدراك المقصد من تلك المعامى كما يقع فى الألغاز والأحاجى للملغز، والمتصدى لحل ألغازه والجواب عنه^(١).

وفى الحقيقة فإن الإجابة عن ذلك تستدعى التعرف على طبيعة العلاقة التى ربطت بين سلطنة المماليك فى مصر وهؤلاء الحكام، وبداية فمن المعروف أن مشكلة الصليبيين كانت قد انتهت منذ عصر السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، غير أن فكرة الحروب الصليبية ظلت باقية فى أذهان الكتاب والدعاة وبعض الملوك والبابوات فى أوروبا، وكانت أخبار تلك المشروعات الصليبية تصل إلى القاهرة مما جعل سلاطين المماليك يتخذون الاحتياطات الحربية والدبلوماسية اللازمة لدرء هذا الخطر من ناحية، وهناك ناحية أخرى فرضتها المصالح الاقتصادية والتجارية، لذلك حرص كل سلطان من سلاطين المماليك على توطيد علاقاته الخارجية مع ملوك الدول الأوروبية شرقاً وغرباً فامتلاً البلاط بسفراء تلك الدول^(٢)، ومن بين هذه الدول مملكة قشتالة التى بدأت بتوطيد علاقتها مع سلطنة المماليك منذ منتصف القرن ١٣م فى عهد الملك ألفونسو العاشر (٦٥٠-٦٨٣هـ/١٢٥٢-١٢٨٤م)، والذى أعقب وفاته دخول قشتالة فى حرب أهلية^(٣) بعد أن سيطر سانشو الرابع على الحكم (٦٨٤-٦٩٥هـ/١٢٨٤-١٢٩٥م)، واستمرت الاضطرابات والنزاعات على الحكم خلال عصر الملك فرديناند الرابع (٦٩٥-٧١٢هـ/١٢٩٥-١٣١٢م) وحتى استيلاء ألفونسو الحادى عشر على العرش (٧١٢-٧٥١هـ/١٣١٢-١٣٥٠م).

والمتبع لتطور العلاقات بين سلاطين المماليك وملوك قشتالة يتبين توثق العلاقات بينهما خلال عهد ألفونسو العاشر بدليل أن قشتالة نالت حظاً من أخبارها فى المصادر المملوكية أثناء فترة حكم السلطان الظاهر بيبرس والسلطان المنصور قلاوون^(٤)، ثم انعدمت العلاقات الرسمية والمباشرة بعد عهد ألفونسو العاشر بسبب اضطراب الأوضاع الداخلية لقشتالة، واتخذت طريقاً غير مباشر يمر عبر مملكة أراجون، فعلى سبيل المثال دخلت قشتالة طرفاً فى المعاهدة التى عقدها خايم الثانى والأشرف خليل فى عام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م.

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٩، ص ٢٥١.

(٢) احمد مختار العبادى، فى تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٥م، ص ٢٢٩.

(٣) محمد عبد الله عنان، تحية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٦م، ص ١٠٥.

(٤) بدأت علاقة مملكة قشتالة بسلطنة المماليك رسمياً منذ عهد ألفونسو العاشر (٦٥٠-٦٨٣هـ/١٢٥٢-١٢٨٤م)، فأرسل سفارة عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠-١٢٦١م إلى السلطان بيبرس ومعهم هدية من الخيول العربية الأصيلة، فرد عليه السلطان بسفارة وصلت إلى قشتالة أثناء احتفال ألفونسو بإحياء ذكرى أبيه، كما وصلت سفارة أخرى إلى السلطان بيبرس عام ٦٦٧هـ/١٢٨٩م، وهو ما تكرر عام ٦٧٤هـ/١٢٧٥م، فرد بيبرس بسفارة ماثلة فى نفس العام، ثم أرسل ملك قشتالة سفارة عام ٦٧٦هـ/١٢٢٧م، وبعد وفاة السلطان بيبرس مارس ألفونسو العاشر سياسته فى الاتصال بدولة المماليك تدعيماً لأواصر الصداقة بينهما، فأرسل سفارة استقبلها المنصور قلاوون عام ٦٧٨هـ/١٢٧٩-١٢٨٠م، وتلاها سفارة عام ٦٨١هـ/١٢٨٢-١٢٨٣م، رد عليها قلاوون بسفارة وصلت إلى قشتالة عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م ومكنت هناك ما يقرب من العامين مما أتاح للرسول الإطلاع على الحرب الأهلية بين ألفونسو العاشر وابنه سانشو الرابع. محمد أحمد النشار، علاقة مملكتى قشتالة وأراجون بسلطنة المماليك، ص ص ١٦٣-١٨١.

وشهد عصر الناصر محمد بن قلاوون عودة هذه العلاقات إذ وفد إلى البلاط المملوكى رسولا من قشتالة أثناء خروج السلطان لقتال المغول فى الشام، فأُنزل منزلة كريمة وأجاب السلطان طلباته، وأرسل معه هدايا عظيمة، ثم أرسل الناصر محمد سنة ٦٩٩هـ/١٣٠٠م بصحبة السفير القشتالى سفارة إلى ملك قشتالة وزودها بهدية، وعند وصول هذه السفارة إلى بلاط قشتالة اتضح أن هذا السفير لم يكن إلا تاجر من برشلونة انتحل صفة السفير وزور اختام الملك، فأحضر الملك التاجر وأدبه على ما أقدم عليه وشكر رسل الناصر محمد، ثم لم تلبث العلاقات بين الدولتين أن أصيبت بالجمود فتولت مملكة أراجون رعاية وحماية مصالح رعايا قشتالة فى الشرق، يتضح ذلك من الخطاب الذى حملته سفارة أرسلها خايم الثانى عام ٧٠٥هـ/١٣٠٥م يطلب فيه من الملك الناصر محمد إطلاق سراح أسرى تابعون لملك قشتالة فرديناند الرابع، وعادت العلاقات إلى قوتها ووحدتها فى عهد ألفونسو الحادى عشر، ويتضح ذلك من إشارة تاريخية للعمري^(١) الذى ذكر مقابله مع رسول ملك قشتالة^(٢).

يتضح من العرض السابق أن العلاقات بين مملكة قشتالة وسلطنة المماليك كانت فى مجموعها جيدة، الأمر الذى يطرح عدة تساؤلات تتعلق بالكتابة الشينية التى تمثلها الهدية التى أرسلها ملك قشتالة إلى بلاط الناصر محمد، وأول هذه الأسئلة تتعلق بتاريخ الإرسال، وثانيها ما هى أسباب إرسالها ودوافعها؟، وثالثها لماذا أغفلت المصادر الأسبانية ذكر هذه السفارة أو الهدايا على الإطلاق وكأنها لم تكن؟.

على الرغم من أن المصادر التاريخية المملوكية لم تذكر تاريخ محدد للسفارة التى حملت هذه الهدايا، إلا أن العمري فى التعريف أورد نصاً تاريخياً فى غاية الأهمية إذ قال أن ملك قشتالة: "...مكاتباته متواصلة والرسل بيننا لم تنقطع على سوء مقاصده وخبث سره وعلايته: أهدى مرة إلى السلطان سيفاً طويلاً وثوباً بندقياً وطارقة طويلة رقيقة تشبه النعش، وفى هذا ما لا يخفى من استفتاح باب الشر والتصريح المعروف بالكناية..."^(٣).

وبتحليل النص السابق يتبين لنا أن هذه الهدية كانت مرسله إلى الناصر محمد بن قلاوون، وذلك فى ضوء مفهوم المصطلح اللغوي "علم بالغلبة"؛ فالغالب والطبيعي المعتاد ان حديث العمري فى كتابه عن السلطان الناصر محمد، حيث لم يدخل العمري فى خدمة غيره من سلاطين المماليك ولذلك لم يذكر اسمه، ويدعم ذلك استخدام المؤرخ لكلمة "سلطان" معرفة ب"ال"، على اعتبار أنه لا يعرف إلا سلطاناً واحداً، ولو كانت هذه الهدية مرسله إلى سلطان آخر غير الناصر محمد لوجب على الكاتب ذكر اسمه. ويتضح من قول العمري "...أهدى مره..." أنه لم يكن شاهد عيان على هذه الهدية، وأنها أرسلت إلى الناصر قبل أن يعمل هو وأبيه فى بلاط المماليك، فإذا كان تاريخ انتقال أبيه إلى القاهرة من دمشق للعمل رئيساً لديوان الإنشاء المملوكى هو عام ٧٣٣هـ/١٣٣٢م، لأمكن الترجيح بأن هذه

(١) فقد كتب قائلاً: "...وحدثني رسول الأذفونش..." مما يدل على مقابله الشخصية لهذا الرسول وتبادلها الحديث. العمري، التعريف، ص ٩١.

(٢) محمد أحمد النشار، علاقة مملكتي قشتالة وأراجون بسلطنة المماليك، ص ١٨١-١٨٦.

(٣) العمري، التعريف، ص ٩٢.

الهدية وردت إلى مصر قبل هذا التاريخ، وإذا علمنا أن الوساطة التي قام بها الملك خايم الثاني بين الملك الناصر وملك قشتالة عام ١٣٠٥هـ/١٣٠٥م لإطلاق سراح أسرى تابعون للملك فرديناند الرابع، قد انتهت إلى رفض السلطان لأنهم أتوا أفعالاً تضر بالدولة، واشتركوا في الحروب الصليبية ضد المماليك، فمن المرجح أن هذه الحادثة هي السبب الذي دفع بملك قشتالة إلى إرسال مثل هذه الهدية إلى السلطان الناصر رغبة منه في الانتقام، والرد على ما اعتبره إساءة لشخصه، وإذا ثبت صحة هذه الترجيح لأمكن تحديد تاريخ السفارة التي حملت هذه الهدية خلال الفترة التاريخية ما بعد عام ١٣٠٥هـ/١٣٠٥م وهو تاريخ سفارة ملك أراجون التي توسط فيها للإفراج عن أسرى قشتالة، وقبل عام ١٣١٢هـ/١٣١٢م وهو عام وفاة الملك فرديناند الرابع، ومما يدعم أن هذه الهدية قد أرسلت إلى الملك الناصر من قبل فرديناند الرابع وليس من قبل ألفونسو الحادي عشر (٧١٢-٧٥١هـ/١٣١٢-١٣٥٠م) الذي تولى الحكم بعده، أن الأخير تولى الحكم وهو يبلغ من العمر سنة واحدة فقط، فدخلت قشتالة في موجة من الاضطرابات والمنازعات على العرش استمرت حتى عام ١٣٢٤هـ/١٣٢٤م عندما سيطر على الحكم في عامه الثالث عشر^(١) مما لم يدع له مجالاً للإنشغال بالعلاقات الخارجية.

فإذا افترضنا - وهذا هو الأرجح - أن رفض السلطان الناصر محمد لإطلاق سراح الأسرى القشتاليين كان الدافع وراء إرسال هذه السفارة والهدية في محاولة لإهانة الناصر، فإن الظروف السياسية والداخلية لمملكة قشتالة كانت هي السبب وراء إرسال هذه الرسالة بهذا الشكل أى عن طريقة الكتابة بالأشياء، حيث مرت خلال فترة حكم فرديناند الرابع ببعض الإضرابات الداخلية نتيجة الصراع على الحكم، ومن ثم كانت مملكة قشتالة في موقف الضعيف الذي لا يقدر على مواجهة دولة كبيرة كالدولة المملوكية التي تزعمت العالم الإسلامي في هذا الوقت.

ومن الطبيعي أن مثل هذه الهدية ما كانت لتترد أبداً في المصادر الأسبانية نظراً لطبيعتها التي تدل على الضعف، ولما تحمله من معانى سيئة لا تليق بملك فمثل هذا السلوك غير مقبول من الحكام، في حين أن المصادر المملوكية أشارت إليها كنوع من الفخر بالقدرات العقلية للسلطان أو الحاكم الذي استطاع أن يفهم ما بين السطور وما تحمله الهدايا من معانى خفية، وقدرته على الرد بنفس الأسلوب.

- أما الكتابة الشيئية الثانية: فمن المعروف أن السلطان الظاهر برقوق لم يكد يفرغ من تثبيت دولته حتى واجه خطراً جديداً بدأ يهدد الحدود الخارجية لسلطنة المماليك الجراكسه، يتمثل في التتار بزعامة تيمورلنك، ذلك أن تيمورلنك استولى على بغداد عام ١٣٩٥هـ/١٣٩٣م، "...وصادر أهلها ثلاث مرات حتى أفقرهم كلهم... بعد أن تتوع في عقوبتهم، وسقامهم الملح والماء، وشواهم على النار"^(٢)، "...ولم ينج

(١) محمد أحمد النشار، علاقة ملكي قشتالة وأراجون بسلطنة المماليك، ص ٧٦، ٧٧.

(٢) المقرئى، السلوك، ج ٥، ص ٣٤٠؛ الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج ١، ص ٣٦٦.

إلا حاكمها أحمد ابن أويس فى عدد قليل وهم حفاة عراة، فتوجهوا إلى حلب وتلاحق بهم من بقى من أتباعهم^(١).

وبذلك بات تيمورلنك على وشك الصدام مع دولة المماليك التى إقترب كثيراً من حدودها، مما جعل السلطان برقوق يشعر بفداحة الخطر، "...فأمر بتجهيز الناس للسفر لقتال تيمورلنك فإنه قصد أخذ البلاد، وقتل العباد، وهتك الحريم، وقتل الأطفال، وأحرق الديار..."^(٢)، فى الوقت الذى لم يستطع فيه تيمورلنك أول الأمر غزو البلاد التى تخضع لحكم المماليك لقوة الظاهر برقوق، فحرص على التودد إليه، ومن ثم أرسل إليه من بغداد سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٣م بعثة وزودها بهدايا عديدة وقيمة وكتاباً طالب فيه السلطان المملوكي أن يرعى حدود الجوار، ويقوى أواصر الصداقة معه بتبادل الكتب والرسائل، ويطلب تسهيل التجارة^(٣).

غير أن السلطان برقوق أمر بقتل الرسل فى المحرم من سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٤م^(٤)، وأخذ يستعد للحرب، وفى يوم ١٧ ربيع الأول سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٤م وصل إلى مصر أحمد بن أويس الجلائرى صاحب بغداد فأستقبله السلطان برقوق وأكرمه^(٥)، بل وتزوج من ابنة أخيه^(٦)، وفى "...سلخه ورد البريد من حلب مخبراً بأن الأمير الطنبغا الأشرفى والأمير دقماق توجهوا بعساكر حلب وما والاها إلى الرها لملاقاة شاليش تيمورلنك فكسروهم وهزموهم بعد أن قتلوا منهم عدداً كثيراً وأسروا جماعة عظيمة...زهاء عن مائة رجل..."^(٧)، ثم عادت الحملة المملوكية إلى حلب، فدقت البشائر بمصر، كما استطاع قره يوسف أمير الشاه السوداء أن يهزم فرقة من جيش تيمورلنك، وأسر احد قواده وهو أطلاميش، وأرسله إلى برقوق.

واستشاط تيمورلنك غضباً لقتل سفرائه ورفض السلطان برقوق الدخول فى مفاوضات معه لإطلاق سراح الأسرى^(٨)، فأرسل إلى برقوق فى شهر ربيع الأول سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٤م رسالة مخيفة شديدة

(١) الصيرفى، نزهة النفوس والأبدان، ج ١، ص ٣٦٤. ابن عربشة (أبى العباس شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقي)، عجائب المقدور فى نواب تيمور، تحقيق أحمد فايز الحمصي، بيروت، ١٩٨٦م، ص ١٢٣.

(٢) المقرئى، السلوك، ج ٥، ص ٣٤١. ابن حجر (الحافظ العسقلانى ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، إنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق حسن حبشى، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٩م، ج ١، ص ٤٥٦، ٤٥٧. الصيرفى، نزهة النفوس والأبدان، ج ١، ص ٣٦٧.

(٣) حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ١٦٧، ١٦٨. أحمد عبد الكريم سليمان، تيمورلنك ودولة المماليك الجراكسة، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٥م، ص ١٧.

(٤) المقرئى، السلوك، ج ٥، ص ٣٤٥. الصيرفى، نزهة النفوس والأبدان، ج ١، ص ٣٧٣.

(٥) المقرئى، السلوك، ج ٥، ص ٣٤٧، ٣٤٨. الصيرفى، نزهة النفوس والأبدان، ج ١، ص ٣٧٥ - ٣٧٧. إيمان عمر شكرى، السلطان برقوق مؤسس دولة المماليك الجراكسة ٧٨٤ - ٨٠١هـ/١٣٨٢ - ١٣٨٩م من خلال مخطوط عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان لبدر العيني، مكتبة مديولى، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ٣٧٦، ٣٧٧.

(٦) المقرئى، السلوك، ج ٥، ص ٣٥٢. الصيرفى، نزهة النفوس والأبدان، ج ١، ص ٣٨٣. ابن حجر، إنباء الغمر بأنباء العمر، ج ١، ص ٤٦٩.

(٧) المقرئى، السلوك، ج ٥، ص ٣٤٩. الصيرفى، نزهة النفوس والأبدان، ج ١، ص ٣٧٨. ابن حجر، إنباء الغمر بأنباء العمر، ج ١، ص ٤٧٣. إيمان عمر شكرى، السلطان برقوق، ص ٣٧٧.

(٨) إبراهيم على طرخان، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ٧٣، ٧٤.

اللهجة تفيض بالتهديد والانتقام^(١)، ينكر فيها قتل الرسل ويطلب منه الإستسلام فوراً^(٢)، "...فالويل كل الويل لمن لم يمثل لأمرنا، فإننا قد خربنا البلاد، وأهلكنا العباد، وأيتمنا الأولاد، وأظهرنا في الأرض الفساد، وذُلت لنا أعزتها..."^(٣).

ولكن برقوق لم يهتز لتلك الرسالة وأظهر ثباتاً ورد على تيمور بنفس أسلوبه، فأرسل له رسالة أخرى أقوى تعبيراً وأشد تهديداً^(٤)، بل لقد طرد رسول تيمورلنك من القاهرة، وبرغم الأزمة المالية^(٥) التي كانت تعاني منها مصر آنذاك فقد خرج السلطان برقوق على رأس جيشه متجهاً إلى دمشق مصطحباً معه أحمد بن أويس، ووصل برقوق وجيشه إلى دمشق في جمادى الأولى سنة ٧٩٦هـ/فبراير ١٣٩٤م^(٦). وفي تلك الظروف عرض السلطان بايزيد العثماني وطقتمش خان القفجاق والقاضي برهان الدين صاحب سيواس^(٧) التحالف مع برقوق لأن الجميع كانوا يشعرون بخطر توسع تيمورلنك وأعماله البربرية^(٨)، وبذلك كَوّن برقوق جبهة إسلامية موحدة قوية لمقابلة العدو^(٩).

وبينما السلطان برقوق ومعه السلطان أحمد في دمشق جاءت الأخبار بأن تيمورلنك خرج من بغداد^(١٠) عائداً إلى بلاده^(١١)، فأرسل أصحاب أحمد بن أويس بالعراق يطلبون منه الحضور لإسترداد بغداد في غيبة تيمورلنك، وقالوا له: "...اجتمع على الفرات من جماعتك خلق كثير ينتظرونك..."^(١٢)، عندئذ سمح السلطان برقوق لأحمد بن أويس بالمسير إلى بلاده، "...فتوجه من دمشق إلى بغداد وقدم له

(١) أحمد عبد الكريم سليمان، تيمورلنك ودولة المماليك الجراكسة، ص ١٨.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور، الايوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٢٧٠، ٢٧١.

(٣) عن نص هذه الرسالة راجع: المقرئ، السلوك، ج ٥، ص ٣٤٩ - ٣٥١؛ الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج ١، ص ٣٧٩ - ٣٨١؛ ابن عريشة، عجائب المقدور، ص ١٥٥ - ١٥٧؛ حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية، ص ١٦٨، ١٦٩؛ إبراهيم على طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ٧٥ - ٧٧.

(٤) عن نص هذه الرسالة راجع: المقرئ، السلوك، ج ٥، ص ٣٥١، ٣٥٢؛ الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج ١، ص ٣٨١ - ٣٨٣؛ ابن عريشة، عجائب المقدور، ص ١٥٧ - ١٦٠؛ حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية، ص ١٧٠ - ١٧٢. وأنظر نص آخر لدى: الفلقشندي، صبح الأعشى، ج ٧، ص ٣٠٨ - ٣١٩.

(٥) اضطر برقوق في أثناء استعداداته لملاقاة تيمورلنك إلى اقتراض مبلغ ألف ألف درهم من ثلاث تجار، كما اقترض خمسمائة ألف وستين ألف درهم من أموال الأيتام. المقرئ، السلوك، ج ٥، ص ٣٥٤، ٣٥٥؛ ابن حجر، إنباء الغمر بأنباء العمر، ج ١، ص ٤٧٥؛ الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج ١، ص ٣٨٦؛ أحمد عبد الكريم سليمان، تيمورلنك ودولة المماليك الجراكسة، ص ١٨ هامش ٢٣.

(٦) المقرئ، السلوك، ج ٥، ص ٣٥٦؛ ابن حجر، إنباء الغمر بأنباء العمر، ج ١، ص ٤٧٥؛ الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج ١، ص ٣٨٨.

(٧) المقرئ، السلوك، ج ٥، ص ٣٥٦، ٣٥٩؛ الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج ١، ص ٣٨٧ - ٣٩٠.

(٨) أحمد عبد الكريم سليمان، تيمورلنك ودولة المماليك الجراكسة، ص ١٨، ١٩.

(٩) إبراهيم على طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ٧٤.

(١٠) وجد تيمورلنك أن بقاءه في بغداد يعرضه قواته لخسائر كبيرة لقلة المؤونة بها، لذا اتجه نحو الشمال الغربي ليهاجم أعداءه على انفراد قبل أن تتوحد جهودهم. حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية، ص ١٢٦.

(١١) المقرئ، السلوك، ج ٥، ص ٣٥٦؛ ابن حجر، إنباء الغمر بأنباء العمر، ج ١، ص ٤٧٥؛ الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج ١، ص ٣٨٨.

(١٢) سعيد عبد الفتاح عاشور، الايوبيون والمماليك، ص ٢٧٠، ٢٧١.

السلطان جميع ما يحتاج إليه... وأعطى تقليداً بنيابة السلطنة ببغداد...^(١)، وبالفعل استطاع السلطان أحمد أخذ بغداد بعد أن طرد حامية تيمورلنك هناك^(٢)، وخطب باسم الظاهر برقوق، وبذلك أعلن تبعيته للسلطان في مصر، وأصبح شرف استعادة بغداد من نصيب الدولة المملوكية التي أثبتت وجودها، وبرهنت على قوتها بين دول الشرق، واكتفى السلطان برقوق بهذا النصر، دون أن يهمل مراقبة تحركات تيمورلنك، فعاد إلى القاهرة أوائل عام ٧٩٧هـ/١٣٩٥م^(٣) بعد أن جدد قلاع بلاد الشام وترك عدداً من العساكر كافياً للدفاع عنها^(٤).

وفى نفس الوقت لم تتح الفرصة لتيمورلنك للانتقام من المماليك، إذ دخل في حرب ضد خصمه طقتمش خان القفجاق الذي هاجم الأراضي الخاضعة لتيمورلنك عند الحدود بين الدولتين، كما اضطر تيمورلنك أيضاً إلى الزحف شمالاً للقيام بحملة في جنوب روسيا^(٥) وصل فيها إلى قرب موسكو مما شغله لمدة عام تقريباً، ومن جهة ثانية نشبت الفتنة في فارس أثناء غيبيته في روسيا، فعاد تيمورلنك إلى فارس لإخماد الفتنة فيها، ثم شعر بأنه في حاجة إلى إعادة تنظيم دولته والبقاء في عاصمته فترة من الوقت للراحة والاستعداد لحملة جديدة، فعاد إلى سمرقند في عام ٧٩٩هـ/١٣٩٦م، وبعد أن أتم تيمورلنك استعداداته الحربية فضّل الاتجاه إلى الهند لاستكمال مشروعه الخاص بإنشاء دولة كبرى^(٦)، كل ذلك جعله يؤثر أن يؤجل الصدام مع المماليك إلى حين^(٧).

وما لبث أن مات السلطان برقوق في عام ٨٠١هـ/١٣٩٩م دون أن تتاح له الفرصة لإظهار شجاعته^(٨)، وهو نفس الوقت الذي قطع فيه تيمورلنك حملته على الهند وعاد إلى عاصمته سمرقند، وهناك أدرك أن الوقت قد حان للانتقام من المماليك، فبدأ يجهز للزحف على الدولة المملوكية^(٩)، ساعده على ذلك الأخبار التي وصلتته عن وفاة السلطان برقوق^(١٠)، وهو ما ثبت فيما تلى من حوادث إذ استطاع تيمورلنك شن حملة كبيرة على بلاد الشام استولى خلالها على حلب ثم دمشق وغيرهما من المدن الشامية التي نهبت وحرقت على يد قواته عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠-١٤٠١م^(١١).

(١) المقرئزي، السلوك، ج ٥، ص ٣٥٧.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ٥، ص ٣٥٨، ٣٥٩؛ إيمان عمر شكرى، السلطان برقوق، ص ٣٧٩، ٣٨٠.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ٥، ص ٣٦٦؛ الصيرفي، نزعة النفوس والأبدان، ج ١، ص ٣٩٨، ٣٩٩.

(٤) حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية، ص ١٢٨.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج ٥، ص ٣٦٨، ٣٧٧.

(٦) حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية، ص ١٢٧؛ أحمد عبد الكريم سليمان، تيمورلنك ودولة المماليك الجراكسة، ص ١٩، ٢٠.

(٧) قاسم عبده قاسم، وعلى السيد على، الايوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ٢١١.

(٨) إبراهيم على طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ٧٧.

(٩) حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية، ص ١٢٩.

(١٠) يذكر ابن عريشة في ذلك: أن تيمور عندما علم أن "الظاهر أبو سعيد برقوق انتقل إلى دار السلام سر بذلك وانشرح، وكاد أن يطير إلى بلاد الشام من الفرح..." ابن عريشة، عجائب المقدور، ص ١٦٩.

(١١) لمزيد من التفاصيل راجع: أحمد عبد الكريم سليمان، تيمورلنك ودولة المماليك الجراكسة، ص ٢١-٣٩.

ومن خلال السرد التاريخي السابق يتبين لنا أن الصراع بين تيمورلنك وبرقوق اتخذ طابعاً سياسياً أكثر منه عسكرياً، فلم تحدث مواجهة حربية مباشرة بين الحاكمين، لذا قامت السفارات بدور كبير في هذا الصراع؛ يتبين ذلك من خلال السفارة الأولى التي أرسلها تيمورلنك من بغداد عام ٧٩٥هـ/١٣٩٣م ومعها كتاب يطلب فيه من السلطان برقوق أن يرعى حدود الجوار وأن يتبادل معه الكتب والرسائل، فهي رسالة تحمل في ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، إذ أن الهدية التي صحبت هذا الكتاب اشتملت على تسع ممالك وتسع من الجوارى ثبت فيما بعد أنهم من أبناء كبار رجال الدولة في بغداد، لذا تعد هذه الهدية بمثابة كتابة بواسطة الأشياء، تتضمن رسالة ضمنية بأن ذلك سيكون مصير السلطان وأمرائه، وفيها غمز ولمز وسخرية من الممالك نظراً لأصلهم غير الحر كعبيد وارقاء، كما تحمل اعتزازاً وافتخاراً من تيمورلنك باستيلائه على بغداد، الذي دلت له أعزتها على حد قوله.

ولما كانت الكتابة بالأشياء أقوى في التعبير من الكلمات المكتوبة وأكثر سهولة في الوصول، كانت هذه الهدية جزءاً من حرب نفسية^(١) يشنها تيمورلنك^(٢) على الدولة المملوكية استعداداً وتمهيداً للمعركة الحربية معهم، ففي هذه الفترة التاريخية لم تكن الظروف مهيأة أمامه للدخول في حرب مباشرة مع الممالك، فأثر أن يؤجل الصدام الحربي إلى حين مع الاستعداد له، وفي إطار هذه الإستعدادات للحرب المستقبلية مع الممالك لجأ إلى الدعاية الحربية عبر استخدام وسائل الإتصال المتاحة في عصره -السفارات- لتوجيه السلطان برقوق ومن معه من أمراء الجيش المملوكي وتغيير رأيهم أو التعديل فيه استناداً إلى حجج، فقد خطط لكي تكون هديته الممثلة في هؤلاء الممالك والجوارى أداة ووسيلة لإقناع الممالك - أو على الأقل التأثير عليهم - ألا يخوضوا القتال تجنباً لوقوعهم في الأسر، وبمعنى آخر كانت هذه الهدية دعاية واضحة المصدر، ولكنها تخفى اتجاهاتها ونواياها وأهدافها، فهي تعمل وتدعو إلى ما تريد بطريق غير مباشر، ألا وهو التأثير على آراء وعواطف الممالك وكبار رجال

(١) الحرب النفسية حرب غايتها تغيير السلوك وميادها هو الشخصية، لذا تعرف أحياناً بأنها استخدام وسيلة بقصد التأثير على الروح المعنوية وعلى سلوك أى جماعة لغرض عسكري معين، وهناك تعريف آخر يرى أنها استخدام مخطط من جانب الدولة في وقت الحرب أو السلم لإجراءات دعائية بقصد التأثير على آراء وعواطف ومواقف وسلوك جماعات أجنبية بطريقة تعين على تحقيق سياسة الدولة وأهدافها. لذا تقوم الحرب النفسية على الدعاية، التي يقصد بها الاستخدام المنظم لوسائل الاتصال لتوجيه شخص أو أكثر وتغيير رأيه أو التعديل فيه استناداً إلى حجج وأساليب قد تتضمن نوعاً من التمويه والتضليل في الحقيقة المجردة. فهى النحار، الحرب النفسية (أضواء إسلامية)، دار الفضيلة، الرياض، ٢٠٠٥م، ص ٦٦-٧٠. وإذا كانت الحرب في جوهرها تبادل منظم للعنف، فإن الحرب النفسية أو الدعاية في جوهرها عملية اقناع منظمة، وبينما تتأجم الأولى الجسد، فإن الثانية تنقض على العقل، الأولى حسية والثانية نفسية تهدف إلى رفع معنويات أحد الجانبين وتحطيم معنويات الآخر ونسف إرادة القتال لديه. فيليب تابلور، قصص العقول الدعاية للحرب منذ العالم القلم حتى العصر النووي، ترجمة سامى خشبة، عالم المعرفة، العدد ٢٥٦، الكويت، ٢٠٠٠م، ص ٢٣. ولمزيد من التفاصيل راجع: صلاح نصر، الحرب النفسية: الكلمة والمعتقد، جزءان، دار القاهرة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦م.

(٢) كانت الحرب النفسية واحدة من أهم وسائل التنار الحربية، إذ اعتادوا منذ أيام جنكيز خان على نشر الدعاية التي تروج لوحشية وقدرات المغول الهائلة وقسوتهم الشديدة في الحرب وسلوكهم مع المغلوبين التي تثير الرعب في قلوب أعدائهم. راجع: فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول في التاريخ، مكتب الشريف وسعيد رأفت للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٧٥م، ص ٣٣٠-٣٣٢، ٣٦٤-٣٦٧. عبد السلام فهمى، تاريخ الدولة المغولية في إيران، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١م، ص ٢٦-٢٨.

- ان تيمورلنك كان لديه من الذكاء والحنكة الحربية ما جعله يحتفظ بعلاقات ودية في الظاهر مع السلطان برقوق حتى لا يثير غضبه فيُدفع إلى قتال في توقيت غير مناسب له ولمشاريعه الحربية، فعمل على تحييد السلطان برقوق بتبادل الكتب والسفارات معه، ولكنه من ناحية أخرى وظّف هذه السفارات وما تحمله من هدايا لأغراض عسكرية فاستخدمها كأداة لحرب نفسية ودعاية يشنها على دولة المماليك في محاولة منه للإرهاب وتحطيم الروح المعنوية لدى الجيش المملوكي على النحو الذي أبرزته الدراسة.

- قدرة السلطان الظاهر برقوق على إدارة الصراع السياسي مع تيمورلنك، فتناسب رد فعله طرداً مع قوة رسائل وتهديدات تيمورلنك، ولما كانت السفارة الأولى التي اشتملت على المماليك والجواري فيها دعاية للجيش التيموري وقدرته على أسر أبناء كبار رجال الدولة، كان رد فعل السلطان عنيفاً بلّ ودموياً إذ لجأ إلى قتل الرسل، وبذلك أظهر السلطان قوته وقدرته على التصدي للدعاية الحربية لتيمورلنك بنفس الأسلوب، وكما قيل قديماً "لا يفل الحديد إلا الحديد"، يضاف إلى ذلك ان السلطان برقوق كان لديه من الحكمة وحسن تقدير الأمور ما جعله يدرك الأزمة المالية التي تعاني منها البلاد في عصره، ومن ثم لم يندفع إلى قتال تيمورلنك قتالاً مباشراً في ساحة المعركة إلا عندما اضطر إلى ذلك.

- الأحوال الاقتصادية للدول تلعب دوراً مهماً في تحديد سير المعارك، فقد تكون سبباً في التبكير بمعركة ما أو تأخير أخرى؛ إذ تسبب تردى الأحوال الاقتصادية لمصر خلال عصر السلطان برسباي في عدم خروج الجيش المملوكي لتأديب دولة الشاه البيضاء، الأمر الذي جعل السلطان وأمرائه عرضة لسخرية عثمان قرابلوک زعيم هذه الدولة، كما يلاحظ أن عمر عثمان قرابلوک كان له دور كبير في اختيار وسيلة تتسم بالحكمة الشديدة للسخرية من المماليك والاستهزاء بهم.

برعاية

مؤسسة أراء للفنون والثقافة
ARAC for Art & Culture

